رسائلُ الملحِ والعَتَمَة

يا جاري الأزرق، يا حارسَ الملحِ والمدى.. أنا البيت الوردي في بيروت، ذلك الذي يراقبك منذ أكثر من قرن...

ها أنا ذا. متجذرٌ في مكاني، لا عناداً، بل لأن الغصة ما زالت عالقةً في حلقي، ولم أعثر بعدُ على صدرٍ يتسع لصبري كما يفعل صدرك. أعلم أنك ترقبني.. وحدك من يملك "رفاهية الوقت" ليتملى هذا الانكسار الأرستقراطي، بينما المدينة خلفي تلهث في سباق مجنون نحو العدم، تركضُ بأقدامٍ من أسمنت وقلبٍ بلاستيكيّ بارد.

اليوم.. سأكلمك. لن أستخدم لغة البشر، بل سأستعير لسان الحجر حين يرقّ، وأنطق بلسان الأرز حين يحنّ لجذوره المنسية. مللتُ صمتي، ذاك الترفع القديم، وحان لي أن أسكب في جوفك شيئاً من ذاكرةٍ ناءَ بها ظهري. لستُ في مقام الشكوى "ومثلي يترفّع عن الشكوى" لكنها محاولةٌ لأرشفةِ جمالٍ أخشى عليه أن يصير في غفلةِ زمنٍ مجرد قصاصة باهتة في سلة المهملات.

يسألون عن لوني الوردي.. بفضولٍ ساذج: "لماذا أنت هكذا؟". يحسبونها صبغةً، أو نزوة مهندسٍ أراد التمرد على الرماديّ الكئيب. مساكين! لا يجيدون قراءة المسام. أخبرهم يا بحر.. قل لهم هذا ليس طلاءً.. هذا "دمُ الوقت". إنه خجلُ الشمس الذي علقَ في جدراني منذ قرنٍ وأبى المغادرة. قديماً، حين كانت الشمسُ تغطس في مياهك كل مغيب، كانت تترك على وجهي قبلةً أخيرة مشبعة بالنبيذ؛ فتشربتها حجارتي يوماً بعد يوم، وسكرت بالضوء حتى توردت. لم يلمسني طلاء؛ أنا "مُتَوَرّدٌ" من فائض الحب، ومن صخب الحياة التي كانت تعمرُ أروقتي حين كانت بيروت تتقن فن الضحك.

أتَلَفّتُ حولي الآن.. فيلسعني بردٌ لا شأن له بالشتاء. حولي عمالقةٌ من زجاجٍ وفولاذ نبتوا كالفطر السام. أبراجٌ تناطح السحاب، زجاجها يلمع بقسوة.. واجهاتٌ صماء، بلا تجاعيد تحكي قصة، فارغة من الروح. جيراني الجدد شاهقون، لكنهم أمام جلال التاريخ أقزام. نوافذهم محكمة الإغلاق كأنهم يهابونك، لا يدخلها هواؤك المشبعُ باليود، بل يتنفسون هواءً معلباً مكرراً.
يا لوحشتي بينهم! أنا "البيت".. وهم مجرد "كتل أسمنتية". شتان ما بيننا؛ كالمسافة بين قصيدة حالمة وتقرير حسابي ممل. أنا شُيدت لتستريح الأرواح في فيئي، لأكون رحماً وملاذاً، أما هم؟ صُنعوا للاقتناء، وقيمتهم تُقاس بالمتر والدولار. قناطري الثلاث التي تعلو جبهتي ليست ديكوراً؛ إنها حواجبُ دهشةٍ ما زالت مرفوعة تعجباً من قسوة ما نرى. شرفاتي أحضانٌ مفتوحة لك وللمدى، بينما شرفاتهم -إن وُجدت- مجرد زينة زجاجية مرعبة. أنا النغمة الكلاسيكية الأخيرة التي تحاول أن تُسمَع وسط ضجيج تكنولوجي أصم.. أنا ذلك الانكسارُ الشامخ وسط صعودهم المبتذل.

لو تسلل رذاذك إلى جوفي يا بحر، لأدركت أن عقارب الساعة عندي توقفت، أو ربما تعمدتُ تعطيلها. السلالمُ الخشبيةُ لا تزال تئنُّ تحتَ وطأةِ خطواتٍ رحل أصحابها، وتحتفظُ بصدى أقدامِ "آل أديب" وزوارهم من باشواتٍ ومبدعين. ما زالَ صريرُ الخشب يهمسُ "لمن يملك أذناً" بأخبار السهراتِ التي كانت تلامس خيوطِ الفجر، حين كان الفنُ سيدَ المجلس، والثقافةُ زاداً يومياً.

والغبارُ هنا؟ ليس وسخاً، بل هو "غبار الطلع" للزمن. هو فتاتُ أحاديثٍ تكسرت، وضحكاتٍ جفت وسقطت على المقاعد. هنا، ربما تنهدت فيروز، وهنا تعارك الشعراء على وزن وقافية، وهنا رُسمت وجوهٌ حاولت حفظ ماء وجه لبنان قبل أن يتشوه. لستُ خواءً كما يظنُّ عابروا السبيل من هواة "السيلفي"، أنا مزدحمٌ بالأطياف حدَّ الفيضان. أشباحٌ أنيقة بملابس حريرية، تفتش عن فنجانِ قهوةٍ بَرَدَ منذُ خمسينَ عاماً، أو عن كتابٍ مفتوح على سطرٍ لم يكتمل. أنا متحفُ الأرواحِ التائهة، وحارسُ الحواس لمدينةٍ قررت استبدال ذاكرتها بـ"ذاكرة تخزين" رقمية سريعة العطب.

وحين يباغتني الليل بسؤاله الصامت: "لمَ البقاء؟". لمَ لا أستسلمُ للمال أو للجرافات؟ لِمَ لا أصبح مسخاً كباقي القطيع؟ أجيبه: لأني "الوتد". في دنيا تموج وتتقلب، وتتبدلُ فيها القيمُ والأزياءُ بسرعةِ الضوء، لا بد من ثابتٍ.. ليكونَ المرجع. أنا ذلك الثابت. أنا الدليلُ الملموسُ على أننا مررنا من هنا، وبأننا امتلكنا ذوقاً، وبأننا احترمنا الطبيعة وصادقناها ولم نتحداها. بقائي فعلُ مقاومة، لكنها مقاومةٌ ناعمة؛ بالجمال، بالهدوء، وبالأصالة. أنا لا أصارع الزمن.. أنا أُروضُه أن يجرح كبريائي.

فيا أيها البحرُ، يا متقلب المزاج.. تغضبُ وترضى.. أنا قدري الثبات. ولكن، لي عندك رجاء، حين تعكسُ صورتي على صفحةِ مياهكَ، لا تُرِني كبيتٍ مهجورٍ يستدر العطف. بل أظهرني كـ "ياقوتة" عتيقةٍ انفرطت من عِقدِ الزمنِ الجميلِ واستراحت على التلة. أوصِ النوارسَ أن ترفق بخشب شبابيكي، فبي ما يكفي من شروخ أحدثها الحنين لا السوس.

وقل للعشاقِ: "لا تنظروا إليه كخلفيةٍ صامتة للصور، بل انظروا إليه كمرآة". فمن يمعنِ النظرَ فيَّ، سيبصر وجهَ جدتهِ الراحلة، وسيشمُّ عبق الياسمينِ في دارِ أهله، وسيسمعُ صدى طفولته.
أنا البيتُ الوردي.. لستُ حجارةً مكدسة، ولستُ صفحةً في دليل سياحي. أنا الروحُ التي تأبى مغادرة الجسد وإن شاخ. أنا قصيدةُ النثرِ الأخيرة في ديوانِ العمارةِ اللبنانية. فاحفظني يا بحر.. خبّئ صورتي في قاعك، لأنني إن رحلت.. ستصبحُ المدينةُ يتيمةً.. بلا وجه، بلا لون، وبلا ذاكرة.

Eva Kanso

Lebanese University